فقد أطرق إطراقة الرجل الذي يعرف أنه يأتي إثمًا من الأمر، ويقول منكرًا من القول، ولكنه مع ذلك يلتمس لنفسه العذر مما يأتي ومما يقول، وهو يعيد على نفسه ذلك المثل الذي ضربه للموظفين الذين يضيق عليهم في الأجر فيرتشون، مثل الخادم التي يُقتر عليها في الرزق فتسرق لتتقي الجوع، ثم رفع سليم رأسه وقطع هذا الصمت الذي كاد يطول، فقال في صوت خافت: أيهما شر: رجل يرتشي ليعيش، أم رجل يرتشي ليستكثر من المال؟ قال خالد: كلاهما آثم، ولكن الذي يرتشي ليستكثر من المال أشد إغراقًا في الإثم وتورطًا في المعصية. قال سليم: فالحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه؛ أما أنا وأمثالي فنرتشي لنعيش، هذه رشوتي قد أتاحت لي أن أقرضك ما تُعين به أباك، وأن أعِينَه من غد، فأمَّا غيرنا … ثم سكت قليلًا، ثم قال: فأمَّا رؤساؤنا وسادتنا فإن الحكومة تبسط لهم في الأجر، وتُوَسِّع عليهم في الرزق، وتقوم لهم بأكثر مما يحتاجون إليه، وهم مع ذلك يرتشون لا كما نرتشي، ويأخذون لا كما نأخذ، إنا نأخذ الدرهم والدراهم، ونأخذ الدينار والدنانير، ونأخذ السفط من البن أو الجماعة من رءوس السكر، أو الحقيبة من الأرز؛ فأمَّا هم فيأخذون أضعاف ذلك وأضعافه، ونحن نأخذ ما نأخذ لننفق على أنفسنا وعيالنا، وهم يأخذون ما يأخذون ليشتروا الضياع يضفونها إلى الضياع. صدقني! إنَّك لا تملك كما أنِّي لا أملك إصلاح ما فسد من الأمر، والله وحده القادر على أن يرد الناس أخيارًا أبرارًا. هنالك نهض خالد وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾. ولكنه لم يكد يبلغ باب الدار حتى كان سليم يجذبه جذبًا عنيفًا وهو يقول: لقد تركت دنانيرك أيها الأحمق؛ خذها وادفعها إلى أبيك؛ فليس عليك من إثمها شيء، ولو عرفتَ أنك سترد إلى قلبه الهدوء وإلى نفسه الأمن، وستمكنه من أن يطعم صبية جياعًا ويكسو جواري كدن يبتذلن، لما ترددت ولا تحرجت.

وبعدُ فإلى أين تذهب بهذا الوجه الذي كسته الظلمة وعاد إليه الانقباض؟! أقسم لا تخرج حتى تستبدل به وجهًا آخر، ثم جذبه إليه جذبة كادت تخلع عنه جبته.

وما أقبل المساء حتى كان خالد قد لقي أباه مستحييًا ووضع في كفه الدنانير مُتَأَثِّمًا؛ فابتسم الشيخ ابتسامة فيها خجل كثير، وقال لابنه: أقم فسنشهد العشاءين مع الشيخ.

وأقبل الصبح من غد، فرأى عليًّا في غرفة أم خالد وقد رفع إلى الله كثيرًا من الصلاة والاستغفار والندم، وسكب كثيرًا من الدموع؛ لأنه لقي ابنه البر بما يكره، وكان له ظالمًا وعليه مُتَجَنِّيًا، ثم تمنى على أم خالد ألا تضطغن عليه مَا قَدَمَ إلى ابنهما من مكروه، ثُمَّ لا يكاد يفرغ من قهوته حتى يطرق الباب ويستأذن الخادم لسليم، فإذا دخل وحيَّا وضع